العدد 9 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية نيسان 2025
No. 9 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences April 2025
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

هاجس الخوف من المكان في رواية "مقتل بائع الكتب"

م .د . رياض حمزة عبّود
Riyadhhamza3@gmail.com
وزارة التربية ـ المديرية العامة لتربية القادسية

الملخص :

تعد رواية " مقتل بائع الكتب " لسعد محمد رحيم " من أهم الروايات العراقية الحديثة ، فقد رُشحت لجائزة البوكر العربي في القائمة القصيرة 2017. وقد اتضحت فيها تجليات الخوف وما يفضي إليه من الموت وانعكاساته على المكان بوصفه عنصرا سردياً مهما في تشكيل الأحداث الروائية وارتباطها بعناصر الرواية كلها. إذ كان للمكان حضور مهم في خلق جو مشحون بالخوف ، وقد جاء البحث لايضاح هذه السمة وتجلياتها من خلال الرواية ومدى ارتباط المكان به.

كلمات مفتاحية : هاجس الخوف من المكان ، رواية "مقتل بائع الكتب"

The Obsession of Fear of Place in the Novel "The Bookseller's Murder"

D. Riyad Hamza Abboud
Riyadhhamza3@gmail.com
Ministry of Education - General Directorate of Education in Qadisiyah

Summary :

The novel "The Murder of the Bookseller" by Saad Muhammad Rahim is one of the most important modern Iraqi novels. It was nominated for the Arab Booker Prize in the short list 2017. The manifestations of fear and what leads to death and its repercussions on the place became clear as an important narrative element in the formation of novel events and their connection with all the elements of the novel.The place had an important presence in creating an atmosphere fraught with fear, and the research came to clarify this feature and its manifestations through the novel and the extent to which the place is related to it.

Keywords: The Obsession of Fear of Place, The Novel "The Bookseller's Murder"

المقدمة :

لا يخلو الأدب الحقيقي في كونه يتمثل الحياة ويتصل بالواقع بطرف قوي من غاية توصيلية وافهامية ، فالإقناع هو غاية وجوهر الأدب ليكون فاعلا ومؤثرا، فأيُّ أدبٍ يخلو من التأثير لايعد أدبا بل هو اسطر ميتة ، ونظريات الأدب تهتم بالقارئ الذي يستهويه الأدب الذي يمثله ويطرح قضايا قارة في وجدانه وعاطفته . إنَّ الفنَّ الروائي يمثل قطعة من الحياة أو يتصل معها بأسباب، فالشخوص والأحداث هي في النهاية انسانية تتصل بالإنسان في كلِّ زمان ومكان ، والمشاعر هي ذاتها في مسارها العام وربما تفترق في الدرجة لكنها في المصب واحدة ومتشابهة. لقد أولَت الرواية العراقية الحديثة -التي تميزت في السنوات الاخيرة - قضايا الانسان العراقي وهواجسه الحياتية والمعيشية و ما يعانيه من تشتت ومآسٍ عنايتها ، فالعراقي كان في وسط حرائق السياسة وتقلباتها ، فكانت معاناته حاضرة بين الاغتراب والموت والضياع والاقتتال ، فنسجت كل تلك الالام شخصيته فلا مناص أن يكون الخوف متجذرا فيه وراسخا في وجدانه ، الخوف من الحاضر ومن

المستقبل بفعل السياسات العبثية والتشظي الدائم لنسيج المجتمع نتيجة للسياسات الخاطئة ، والحروب العبثية ، فصار الجهل سائدا فيه والفقر ممتدا على مساحة شاسعة من ملامحه . لا نجد كاتباً حقيقيا ينأى بنفسه عن معاناة مجتمعه ، فهو يستشرف من هذه المعاناة مادته لينحو بها أدبا فاعلا ومغيرا لمستقبل يراه ويتنبئ به من خلال لغته وحوارات شخوصه .

لقد جاءت رواية مقتل بائع الكتب للراحل سعد محمد رحيم متميزة بين الروايات العراقية الجديدة التي جعلت من احداث العراق ومعاناة ابنائه موضوعا لها ، فهي قد اكتسبت العناية والاهتمام اذ ترشحت للقائمة الصغيرة للبوكر العربي 2017ومثلت انعطافة حقيقية في ابداعها وتميزها لجملة عناصر اجتمعت فيها في مقدمتها أنَّ مضمونها كان واقعيا في نقل الألم والخوف العراقي من الموت الذي يترصده ، هذه الواقعية في الحدث ارتبط بالأمكنة التي اجترحتها الرواية فهو وإن كان لفظياً متخيلا داخل الرواية لكن مسمياته ووصفه واقعية ومعاشة لاسيما وأنّها ارتبطت باحداث العراقي بعد 2003 بكل تفاصيلها .

فضلا عن أنَّ الكاتب لا يتنصل عن الاحداث بل هو في صميمها مجترحاً حوارات شخوص الرواية فاختار مدينته(ديالى) مسرحا لأحداثها التي تتمحور حول مهمة صحفية يقوم بها كاتب مغمور لاستقصاء معلومات عن شخصية القتيل (محمود المرزوق) الذي ارتبطت الرواية به وبمقتله الغامض وما بثه السارد (الصحفي ماجد البغدادي) مما عثر عليه من مذكرات المرزوق وظروف حياته.

ولم يكتف الروائي بذلك بل اثبت اسمه الصريح على وفق تقنية ما وراء السرد ليكون حضوره اسما وصفة شاهدا للقارئ أنَّ الكاتب موغل في الوقائع وقريب من تفاصيلها وهو يشاركه مسارها خصوصاً في رواية العنوان فيها هو (القتل) ومخرجات .

المبحث الأول

أولا : ماهية الخوف

الخوف في جوهره وأساسه هو انفعال فطري عند الكائن الحي ومنه الانسان، فهو من الانفعالات الأساسية الكبرى التي تشمل أيضا : السرور والغضب والحزن ، والخوف " يشير الى انفعالات اخطار واقعية مدركة او متخيلة ، وهو يختلف عن القلق الذي يظهر بشكل غير متناسب مع التهديد أو الخطر الفعلي المتضمن موقف ما" [1]، يقول "كزيل " : "الخوف يمثل ميلا أصيلاً في الانسان ولكنه عرضة للتغيير بسبب النمو الجسمي وبسبب التنظيم الذي يحدثه الاقتران البيئي" [2]، فالخوف في أبسط تعريفاته : هو حافز على الهرب أو الانهزام حتى لو لم يتحقق سلوك الهرب ظاهريا وبتكراره وازدياده يتحول الى نمط سلوكي يتحكم بالانسان وردود فعله وقد يتجذر حتى يتحول الى الفوبيا Phobia فهو خوف غير عقلاني في شدته أو ماهيته. يرتبط هذا الخوف بجسم، فعالية أو حالة معينة وهي تنشط من الخوف من التعرض لمسببات معينة يرى العقل الباطن سببا للخوف والهلع من تجربة سابقة أو تجارب الاخرين .

فلو صنفنا الخوف الى واقعي واخر غير واقعي يرتبط باللاشعور لكانت الفوبيا في الصنف الاخر وتبدو مظاهرها اشد وطأة فهي ترتبط بالمخاوف الجسدية والنفسية والسلوكية على حد سواء ، وتتضح ليس فقط من خلال التصرفات بل من خلال المواقف والاحكام المسبقة التي تمنح الفرد شعورا سلبيا اتجاه ما يواجهه من اشخاص وأشياء في حياته فلا يقوى على المواجهة أو التجاوز بايجابية وثقة .

[1] الغرابة : المفهوم وتجلياته في الأدب ،د. شاكر عبد الحميد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،2012: 89 .
[2] الخوف أسبابه وأنواعه ، أميمة علي خان ، مجلة الاقلام ، ج7 ، س1 ، اذار 1965: 2 .

إنَّ ارتباط الخوف أو هاجس الخوف بالإنسان فطري كما تقدم ، ويرى بعضهم أنَّ الخوف أمر قد ورثه الانسان في جهازه العصبي منذ آلاف السنين ، فهو يرث الميل أو الاستعداد له [3] ، فهو في جوهره يبدو وسيلة دفاع لا شعورية تنجيه من التعرض للمخاطر ، لكن جانبه الأهم أنّه يعبر عن مشاعر الانسان وموقفه من الأشياء التي حوله أكانت أنسية أم غيرها .

وقد تتبع الدارسون مصادر الخوف فوجودها تنقسم على ثلاثة اقسام هي [4]:

1- الخوف من المجهول

2- الخوف من المعلوم الذي تبين ضرره

3- الخوف من شيء ارتبط بالضرر .

فالخوف من المجهول كامن في اعماق الانسان تذكيه فيه الحوادث السابقة التي تأجج في نفسه مشاعر دافقة تحكم في ضوئها علاقته بالأشياء ، وقد تفضي الى أن يحدد في ذهنه مساحة ومعطيات سببها هذا الخوف ، لاسيما من المجاهيل التي لا يعي حدودها فتبقى محبوسة في داخله يؤطرها على وفق هواجسه ، فالخوف "يشكل حالة من الصراع الداخلي الذي يفضي أحيانا الى نوع من الخضوع تارة ، والى الهروب من سطوته تارة أخرى" [5] ، وهو فضلا عن ذلك مظهر من مظاهر الوعي بالأشياء والموجودات ، فمكمن الخوف في كل أقسامه هو حالة من الوعي يرتد من خارج الشخص الى داخله ليحي فيه نمطا سلوكيا وموقفا جلياً.

ثانيا : الخوف ثيمة سردية

إنَّ الأدب – كما تقدم – انعكاس لوعي الانسان وفكره ووعيه ، يحمل دفقات شعورية يحمّلها الأديب نتاجه ليكون مؤثرا في متلقيه ، هذه المشاعر الوجدانية تأتلف مع جميع بني البشر وتتباين في الدرجة فقط ، ولأننا ندرس رواية أو نحاول قراءة مضامينها فلا بدَّ أن نركز بعين الوعي عن الدفق الشعوري الذي حملته مرة بلسان شخصياتها ، ومرة بالموقف العام الذي تبغي الرواية ايصاله كونها جزءً من الواقع يختلط فيها وعي الكاتب وأمله ، أو هي كما يقول غابريل ماركيز : " في الرواية قدر من السحر والخرافة يوازي قدرا اخر من الواقعية" .

فالسحر والواقع لا ينفكان من المشاعر الانسانية التي تحضر لتدفع الاحداث وتصبغ الشخصيات بهواجسها وانفعالاتها وتبث فيها هذه الحياة التي تحيل الأسطر والأوراق الى حيوات نابضة بالحياة وصراعها .

لقد حدد الروائي (فورستر 1879-) 1970في كتابه " أركان القصة " حين حصر حقائق الحياة في خمس قائلا : " الحقائق الرئيسة في حياة البشر خمس هن : الميلاد ، والطعام والنوم والحب ثم الموت " [6]، هذه الحقائق لو تمعناها لرأيناها ترتبط جميعها بالخوف ، من رحلة الانسان حين مولده الذي يبدأ بصرخة الحياة حتى أوان مماته ، فالخوف قارٌّ في وجدان الانسان في رحلته الدنيوية، فهو قابع في مخيلته ووجدانه بشتى صوره ومظاهره فلا مناص من نسيانه ومغادرته .

---

3 ينظر / الخوف ، د. أحمد فؤاد الأهواني ، دار المعارف ، ط1 ، 1951 : 13.

4 م . ن : 20.

5 ينظر : مظاهر الزوال في الشعر الجاهلي -دراسة تحليلية - ، د. عبد الجبار الزبيدي ، مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، العدد : 104 / السنة 2013 ، ص59.

6 أركان القصة ، فورستر ، ترجمة كمال عياد جاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2001 : 72.

وقد مثّلت رواية سعد محمد رحيم – مقتل بائع الكتب – مثالا لهواجس الخوف الذي عم اغلب عناصر السرد في الرواية فهي تروي قصة كاتب صحفي يتلقى اتصالا ليكتب عن سر اغتيال (محمود المرزوق) بائع الكتب في ديالى ثم يتلقى الكاتب لقاءات مع المقربين من محمود ويعثر على بعض مقتنياته المكتوبة ومنها خواطره ومذكراته ؛ لتنسج هذه الاحداث سيرة حياة بائع الكتب اليساري الذي عانى الظلم والقهر والتغرب والسجن منذ ستينيات القرن الماضي وهجرته الى أوربا ثم عودته الى ديالى ليبيع الكتب حتى اغتياله أثر رصاصة غادرة توهمته شخصاً اخر.

يحاول الكاتب من خلال الراوي أن ينسج مشاعر الخوف لمدينة تئن من وقع الرصاص والظلام والانفجارات التي تتماثل مع طقس العراق السياسي بعد عام 2003 من انتشار مظاهر العنف والموت ، ثم يحاول التوصل لسيرة حياة بائع الكتب ليصل في النهاية من خلال مقدم الشرطة لمفارقة أنَّ مقتله كان مصادفة وأنَّ المقصود كان غيره وجاءت الاقدار لتقوده ليكون ضحية لموت متحقق لكل عراقي في حياته . فلا غروَ أنَّ حياة البطل كانت هامشية وغير مؤثرة ، من خلال سير الأحداث ، فهو غفل لكنما ثيمة الرواية الأساسية التي لم يوضحها الروائي وترك الوصول اليها للقارئ هي مشاعر الخوف التي تصطبغ الشخصيات والأمكنة ، حتى صار طقساً عاماً في سيرورتها . أو لنقل هي سيرة مكانية لمدينة ديالى أبان الحرب والاحتلال الأمريكي وهجمات المجاميع الإرهابية وقتذاك .

حين نقرأ الرواية نتوقف عند علامات واشارات توحي بها مسارات السرد وانعطافاته لا يمكن أن نفهمها فهما مباشرا إلاّ من خلال القراءة والتأويل . فبائع الكتب الذي وُسِمَ بسمات متناقضة يمثل ملمحَ الثقافة والمثقف في العراق التي تبدو متناقضة ولا تعرف ما تريده وتتثبته ، فحياة بائع الكتب منذ صباه حتى مقتله كانت مشتتة يعتريها الخوف والضياع وانتقالاته في المكان كانت انتقالات عبثية لا تستقر عند مبدأ أو أمر ، وعلاقاته النسائية لايحكمها الحب بل التناقض والهروب.

هذه الثقافة التي ولدت معاقة لم تقدم شيئا وبقي بوحها وطروحاتها لا تفضي الى شيء محدد ، ولعل استدعاء شخصيات أدباء المدينة ونقل حوارهم يوضح هذا الأمر.

ويبدو موقف بائع الكتب من شخصية سعد محمد عبد الرحيم – الكاتب الحقيقي- حين يُستدعى ليوصم كتابه عن المثقف والسلطة بأقذى العبارات فلا علاقة للمثقف بالسلطة بل هم يرتسم خبالاته فقط ولا يقدم شيئا ذا نفع .

" وحده سعد كان يعتقد الأرجوحة الحديدية .. ، حكى عن مشروع كتاب له يدور موضوعه حول العلاقة بين السلطة والمثقف ، سألته : من تقصد بالمثقف؟ اجاب من غير تردد : منتج المعرفة وصانع الجمال الذي يمتلك رؤية نقدية ويهتم بالشأن العام . ... قلتُ في دخيلتي : هذا نائم آخر ورجلاه في الشمس ، قلت له : اسمع يا سعد سأفيدك بفكرة .. المثقف اليوم هو ذلك الثرثار العاجز الذي يخدع نفسه بألاعيب بلاغية فارغة لا تقدم ولا تؤخر وهو في النهاية من الخاسرين [7].

هذا الموقف الذي اتخذه بطل الرواية بمواجهة مؤلفها ، لم يكن آنياً بل هو ردة فعل لخوف داخلي وواقعي يحكمه ، وكذلك هو مفارقة في ذاتها ، كون البطل في مهنته ورحلته الزمانية يمثل الثقافة فهو كتبي يفتح سرداب مكتبته كل يوم لبيع الكتب التي هي منتجات الثقافة .

[7] مقتل بائع الكتب : 62.

فللثقافة مكان عنده ، " لأول مرة أركب حافلة الى بغداد ..اقنعني كاكه عباس أن نذهب الجمعة الى المتنبي ، كتب جديدة وأخرى قديمة تعرض بحرية ، ...في مقهى الشابندر كان الوضع أشبه بسيرك بعروض هزلية وبعض أشباه المثقفين مثل ديكة عجائز كل له ادعاءاته" [8].

ويبدو أنَّ هذا الموقف الضدّي من الثقافة هو محاولة لإعلان موت العقل على حساب الارهاب ومنطق القتل ، وهو اخفاء للخوف حين يكون الانسان ضد قيمه وضد مساره ، حين يصل المرء الى نقطة في نهاية عمره وشيخوخته ويرى قيمه خواء وسط سماء من الموت والقتل والتشرد.

ولذا فقد كانت موت "محمود" اعتباطيا كذلك ، لا معنى له ولا قصدية فيه ، بل أنَّ قاتله المجرم الراديكالي لا يهمه أمره وهذا هو حال الثقافة التي أراد الكاتب ان يوصمها وهو قد تكبدها كتبيا وصحفيا وكاتباً .

نلحظ أنَّ شخصيات الرواية هي واقعية من خلال الاسماء أو الصفات والحوارات فأغلب من تم ذكره هو له موقع في الواقع بل أنَّ الراوي لا يتردد في استدعاء اسم المؤلف الحقيقي- كما أشرنا - ربما ليشير الى واقعية ما يروي ولا يمكن بأي حال من الأحوال جعل هذا الامر قصدياً لتقنية سردية تجعلا لمؤلف فاعلاً ، عبر الميتا سرد ؛ لانَّ موقف المؤلف (سعد محمد رحيم) لم يكن متحكما بسير الرواية بل جاء هامشياً واشاريا ، ليوضح خوفه هو كذلك الذي ارتبط بالمكان .

في الرواية ثغرات منها إنَّ السير الزمني كان بطيئا فالرواية تسير في زمن ضيق يتلاشى الى زمن سابق ليس من خلال التحكم بالزمن بل جاء عرضيا من خلال عرض مخطوطات عن حياة بائع الكتب محمود فالزمن بقي رتيبا حين انتقل السرد لعرض الوثائق والمخطوطات ولو كان متحركا وارتجاعيا لكان اجدى واكثر حيوية .

المكان كان أهم عنصر تمثل الخوف ، فوصف الامكنة قد حاز السبق في اشارات الخوف فهو مظلم ومقفر وبارد وتحيطه الانفجارات والطلقات ...هو مكان موحش وميت غابت عنه اشجار البرتقال ليكون دامساً .

فالرواية في موضوعها وما جسده مثلت ثيمة حاضرة في الظروف الحالية للعراق ربما ان يقرأ العراقي الرواية لا يصيبه الاستغراب ، بل يتعجل في عدها رواية عادية لظروف عاشها العراقي في زمانه القريب وعانى منها لكنها بالضرورة لا تكون كذلك للقارئ غير العراقي فمثل هكذا ظروف لم يعتد عليه ولم يعشها من موت وقتل وانفجارات وغياب لقيم الانسان في حريته وعيشه بسلام .

فما يروى هو من اليومي المعتاد أو ما حصل فعلا ، ولذا فلا تشكل الرواية في هذا المضمون اثراً جديدا أو مغايرا ، فالرواية لا تنقل الوقائع بصورة فوتغرافية بل الفنية فيها في تعميق دلالاتها وتبيين اثارها في وجدان المتلقي من خلال التأثير به .

فقد حاول الكاتب أن يخلق جوا بوليسيا وهو يتقصى الوقائع ويلم خيوط الاحداث ؛ ليقع على سر مقتل بائع الكتب محمود ، لكنه لم يخلق جوا من الاثارة ؛ لاقحامه كثيرا من الاشياء في سير الحكي والاحداث ولعل تكراره للوثائق التي حصل عليها من مكتبة محمود او من اصدقائه قد اضعفت هذا الجانب كثيرا .

فهو لايكتفي بمذكرات او يوميات محمود التي عثر عليها في مكتبته بل يكررها مع ما اعطته له رباب من مذكرات كتبها وطلب ان تقرأه ثم تتأتى فيما كتبه زميله الفنان المغترب عنه ثم اخيار يتسلم رسالة من شخص صديق قديم له ناقم على محمود وسر نقمته عليه لم يكن مبررا أو مقنعا للقارئ ...، فهل يعقل ان يكلف

[8] المصدر نفسه : 52-53.

شخصا نفسه تجسيد حقده على صديق يعرفه مضى على افتراقهما سنوات طوال ولا نجد سرا لهذا الحقد الذي ينقلب محبة او يكاد .

هذه تؤكد أن المؤلف أراد تبيان أحوال المدينة (المكان) والتعبير عن هواجس الخوف والموت الذي أصابها وتجذر فيها طقساً يومياً .

لكننا نعود ونقول إنَّ الخوف قد تجسد فيها وربما لم يصل للفوبيا التي تعني حالة مرضية منه بل كان الخوف ظاهرا حاول بائع الكتب محمود أن يردده في مسيرة حياته عبر احداثها الكثيرة

إنَّ الخوف ومظاهره كلها يبقى واقعيا وينتهي بفعل الكتابة الذي مثلته مذكرات محمود أو سيرة حياته التي يريد الصحفي تدوينها ؛ لأنَّ السرد أو الكتابة السردية خلق حياة وهي خروج من العزلة ، فالكتابة تقتل هذا الخوف الكامن والمتوهج في النفس بمجرد البوح به أو التلميح عنه وتعريته في عالم الرواية والتحرر من اصفاده .. ، فالأدب هو بوح وتحرر وهو بالضرورة مجاوزة للواقع وتخطيه بخطوات والانفلات منه ما دامنا نخلق عوالم تنطلق منه ونحاول ان نبث فيها املا وانتصارا على مخاوفنا ...

المبحث الثاني : المكان الروائي

يمثل المكان في الرواية عنصرا رئيساً تتشكل الرواية من خلاله مرتبطا مع العناصر الاخرى كالشخوص والزمان والاحداث وتترابط لتفضي الى حبكة الحكاية التي تصوغها اللغة ويجسدها الشخوص .

لا انفصال للمكان فهو دال حيوي لا نجد رواية تنأى عنه ، فهو حاضر في كل التفاصيل بالوصف تارة أو بكونه فضاء يحيط بالعناصر الاخرى .

فالمكان حضوره لا يقف عند كونه تكملة للمشهد من خلال وجوده المحايد أو الجمادي بل هو يتحرك ويعكس بالضرورة رؤى الشخوص وينبئ بالحداث وتعقيداتها ، ووحده الكاتب المبدع من يستطيع أن يجعل من المكان دالا حاضرا ويربط الاجزاء مع بعض ليخلق عالمه الورقي ويبث فيها الروح عالما متكاملا منسجما ....

إنَّ رؤية الشخصيات وانفعالاتها تنعكس على رؤيتهم للمكان ، فهو مبدأ ومنتهى في جسد الأدب يسكب الأديب خلجاته ويوصل رسالته من خلاله ، فلا ننسى أنَّ الطلل في الشعرية الجاهلية كان لوحة قارة ، ومبدأ الانثيال الشعوري وهو مكان في واقع الموجودات قفر طلل لا حياة فيه ولا تفاعل ينبجس من ثناياه ، بيد أنَّه كان وسيلة مؤثرة اراق عليها الشعراء انفعالاتهم ؛ لأنَّ المكان يمثل الظرف الذي يقيّد الانسان في حله وترحاله وحياته وموته ، وكذا الأمر مع كل أدب فهو لا ينفك مع جدلية المكان أ كان أليفا او موحشاً ، من خلال حركية اللغة وتراكيبها ، فلا شك أنَّ في الرواية مجالا كبيرا للمكان كونها تفصيل واجمال على عكس الأجناس والانواع الأدبية الاخرى ، لكن هذا الاجمال في التشكيل اللغوي لايمنع أن يكون تشكيل المكان موحيا وغير مصرح به حين يتم وسمه بدلالات وشحنات عاطفية هي انعكاس للشخوص الروائية او رؤى الكاتب نفسه .

فالرواية في تشكلها وتعريفها البلاغي كما صرحت به سيزا قاسم هي :" رحلة في الزمان والمكان على حد سواء "[9]، فهما يرتبطان بسير الاحداث ، فاذا كان الزمان الخط الافقي الذي تسير عليه الاحداث ، فالمكان

9 بناء الرواية : دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا قاسم ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2004 : 21.

هو الاطار الذي تقع فيه الأحداث ، فضلا عن الارتباط بالادراك الحسي للمكان الذي يتم تقديمه من خلال الوصف .

فثمة أمر يرتبط بتقديم المكان من خلال الوصف ، فالوصف ينطلق من الشخصيات ويرتد اليها في الآن نفسه ، وتلك سمة للمكان فهو وان نأى يبقى مألوفا من خلال الوصف ؛ لأنَّ الواصف يعبر عن رؤيته وانطباعه وهنا المكان سيكون محايدا في أصله وجوهره وما يقع عليه من أوصاف مصدرها الواصف وخبايا نفسه ووجدانه .

ولو نظرنا لرواية " مقتل بائع الكتب "[10] لسعد محمد رحيم ، وجدنا للمكان حضورا مهما فقد جاء تقديمه من خلال الوصف معززاً لجو الرواية التي تعرض قصة مقتل محمود المرزوق بائع الكتب في بعقوبة ومحاولة الراوي تتبع قصة مقتله وتحري سرها ليقدمها بكتاب دفعه أحد الاشخاص المجهولين اليه ليوثق قصة المرزوق التي امتدت في امكنة كثيرة وازمنة جسدت حالة المثقف العراقي خلال اكثر من نصف قرن من التقلبات والحروب والمنافي بين مدن لايجمع بينها جامع تبدأ من بعقوبة وتتنقل رحلة حياة وألم الى بغداد ونقرة السلمان ثم باريس وبراغ رجعوا الى بعقوبة التي اضحت مدينة يألفها الموت وتهرب من أزيز رصاصها العصافير

فالمكان الذي يتكرر في احداث الرواية وهو المكان الرئيس (مدينة بعقوبة) التي تحولت بفعل احداث الفوضى وانعدام الامن الى مدينة موت وتحولت بساتينها الى بقعة ظلام واصوات عصافيرها الى اصداء انفجارات ورصاص.

فالمكان يرتبط بتاريخ الأشخاص وهويتهم ، فالفطرة ان يكون المكان من خلال الوصف يمنح الانسان شعور بالألفة والامان الاستقرار، بيد ان بعقوبة خرجت عن هذا الطوق الأليف لتقبع في اوصاف تقدم ذكرها، " والمكان لايمكن تحديده إلاّ من خلال اشارات خارجية بالنسبة لكل متكلم "[11] ، ولذا فقد حرصت الرواية الى متوالية تتكرر عن الماكن ووصفه الذي يحيل الى الموت والمجهول .

المبحث الثالث : الخوف من المكان وأثره في تشكيل الرواية

شكّل الخوف من المكان ملمحاً جليّا في الرواية وقد جاء في تراكيبها تصريحاً بلسان الشخصيات وتلميحا من لدن الكاتب (سعد محمد رحيم) ، الذي يطل برأسه بين السطور مستعملا تقنية الميتا سرد في موضعين.

فهو ابن المدينة الغارق في تفصيلاتها والموغل في احداث الموت والدم التي عصفت بالعراق وبعقوبة ، فالشخصيات التي ذكرها الراوي هي شخصيات ادبية تهاجر وتغترب مكانيا هربا من الموت، فهواجس الخوف المكاني لا تقف عند حدود عالم الرواية الخيالي بل هو ناتئ في جسد الواقع ، أي خارج النص السردي ، فهو يحيل لاسماء أدباء مدينة بعقوبة وصفاتهم التي عصفت احداثها بنصف بيته في مكان عبّر عنه ماجد البغدادي – الراوي من خلال حواراته مع من التقاهم بقولهم : "بعقوبة بسبب أحداث العنف خسرت أكثر من نصف مبدعيها ..بعضهم هجرها ، وبعضهم اغتيل فيها ، وبعضهم مات كمدا .."[12] .

10صدرت طبعتها الأولى عام 2016 عن دار سطور ببغداد ،وقد وصلت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر العربي في العام نفسه .
11صيغ التمظهر الروائي – بحث في دلالة الأشكال ، د. عبد اللطيف محفوظ :169.
12مقتل بائع الكتب ، سعد محمد رحيم ، دار سطور ، بغداد ، ط2 ، 2017 : 9.

بل أنَّ بعقوبة المدينة – المكان لم يكن العنف وحده من جعله موحشا وطاردا للحياة فيها ، بل هو مستقر فيه -، فهي مدينة لا فنادق فيها ، فالراوي يصفها برفقة حبيبته فيقول : (والان أين اخذك والمدينة ليس فيها أماكن تستقبل عاشقين معا ، مشينا بين الأزقة والشوارع الفرعية حتى وصلنا الى مطعم في شارع ..كانت العيون الفضولية مركزة نحونا ..على وجه الدقة ..امرأة جميلة لا تضع الحجاب وترتدي بنطالا اسود وقمصلة سوداء فيما قميصها البنفسجي يعكس على وجهها رونقا آسراً وأين في بعقوبة التي شبهها بعضهم في أثناء الاقتتال الأهلي وانتشار المليشيات المسلحة بقندهار الافغانية "[13].فبعقوبة في اصلها هي " مدينة لم تكن قد تخلصت تماما من طابعها الريفي .."[14] ، هذا الطابع الذي جعلها مهيأة لهذا السبات الذي لفها وجعلها تعتاد الموت ، فالمكان يتأطر بالمشاعر فهو يسلط عليه ما لا يريد الافصاح عنه وكأنه ارتباط غريزي حين يصرح بمنولوجاته وحواراته من خلال المكان ...، الذي يتشاركه الراوي والبطل والشخصيات وكل شيء يتمسك بالمكان مركزا لبث خلجاته .

فالمرزوق في مذاكراته يثبت حوارا مع رباب المعشوقة ، فيقول : "اتكلم عن الحب والمدينة ما تزال مخنوقة برائحة الدم والخوف ، تعتقد رباب أنَّ الحب سيهزم الشر – رباب الرومانسية – قالت لي : أنت واقعي أكثر مما يجب تقيس كل شيء بالمسطرة . قلت : لست كذلك . قالت : بلى ، ولا تحسب أنَّ كل شيء يمكن أن يتغير بلحظة واحدة . . قلت لها : عبد الله يقول : بعقوبة آخر مدينة في البلد سيستقر فيها الوضع ...، سألت : من هو عبد الله؟ قلت: صديقي "[15].

ولو استعرضنا سمات المكان لدى المرزوق الذي اثبته في مذكراته ليتشكل الحوار بأوضح صورة فهو " حوار ينطلق من الذات ويعود اليها مباشرة ، وهو يستمد طاقته التعبيرية من ومضات الوعي فيكشف عن البواعث المحفزة ، ليتحول المونولوج الى شكل مفجر لما داخل النفس ومحرك لدلالات النص الذي يضمر خلفه دلالات أعمق "[16] .

فنراه يوسمه بكونه :

- المدينة مثل لوحة سيريالية رسمها فنان دعي

- قصيدة دادائية كتبها شاعر نصف موهوب.

- المدينة قطعة من الهراء.

- حلم ممزق الى أشلاء.

لقد دوّن المرزوق يومياته واسماها " يوميات الخراب " وأثبتها الراوي في متن الرواية ، وقد بدأ تدوينها منذ 2003/4/9 وهو تاريخ دخول الامريكان بغداد وسقوط النظام ، وهي امتدت الى جملة تواريخ اثبت بعضها باليوم والشهر واخرى فقط بالشهر واغلبها وصف للمكان بل هو يقدمه أولا على صور هي : (شارع الأطباء – المدينة – المكتبة – المكان – العمارة – الشوارع) لينتهي منها في كانون الثاني 2009 بعد شعوره بالضجر والسأم مما يدونه .

---

13 م . ن : 113.
14 م . ن : 91.
15 المصدر السابق :74.
16 الرواية والتلقي –رواية مقتل بائع الكتب لسعد محمد رحيم في دائرة النقد والقراءة ، اعداد : د. محمد صابر عبيد ،د. محمد جواد علي ، دار سطور ، بغداد ط1 ، 2018 : 136.

فالمكان لو عرضناه تفصيلا لوصف المرزوق في " يوميات الخراب " لوجدناه مكانا موحشا ينبئ بالحالة النفسية للشخصية ويجلي تداعيات النفس ، فقد تكرر ذكر المكتبة المكان الأثير عنده والوحيد الذي يقضي فيه ساعاته ، فهو واقعيا يقع في قبو" سرداب" العمارة بعد ان شحت الاموال من دفع ايجار ملائم ، ونفسيا هو القبر لعالم محكوم بالغباء – كما يصفه - [17] ، فتطابق المكتبة – المكان في كونهما قبرا يحدد سمة لهذه الرواية التي تحيل عنوانها " مقتل بائع الكتب " وبدايتها الى البحث عن سر مقتل المرزوق وكأنها راوية بوليسية لا تتضح اسرارها إلاّ في ختامها ، لكنها في عمقها ومن خلال تفكيك دلالات المكان فيها تحيل لرؤية اعمق فهي تشريح للواقع بكل سوداويته وللثقافة المحتضرة التي ترى المكتبة قبرا والمدينة سأماً والشارع مخاطرة موت وقنص (فالجثث في الشوارع) ، والانفجارات تحيط بالامكنة " فقد حدث انفجار في فلكة العنافصة وآخر قرب السوق المركزي وثالث في شارع المحافظة ورابع في بعقوبة الجديدة وخامس في حي التحرير وسادس في الكاطون ...يستهدفون من ؟ لماذا يقتلون الناس ؟ لماذا لايكتفون بتوجيه غضبهم نحو الامريكان ؟سألت شابا جاء يبحث عن كتاب " الحيوان " للجاحظ ؟ قال : وما ادراك أن الامريكان ليس لهميد في هذا ؟ قلت : هم أيضا يتعرضون لهجمات . قال : من يدري أي شيء في هذا المنزلـق .. اعطني الكتاب فحيوانات الجاحظ أرحم "[18].

فالمدينة تشتعل وسط جحيم الانفجارات والموت ينتشر ويبقى الجاني غائب الذكر ويبقى وسمه غير مصرحا به وقد عاث قتلا وسفكا بهذه المدينة واهلها .

لكننا لانجد رواية " مقتل بائع الكتب " قد تحررت من هذا الخوف وان كان المؤلف قد كشف قناعه واسمه مرة صراحة واخرى من خلال الراوي الذي يشبهه في المهنة والرؤية واقصد ماجد البغدادي، بيد انَّ الرواية بقيت مختنقة بدخان الموت وظل هاجس الخوف هو الخيط الذي يمسك بعناصرها كلها ولا ينقطع حتى في سطورها الاخيرة .

وقد صرح بطلها " المرزوق " متسائلاً حين حاول كتابة كتاب اسماه " كشف حساب " قائلاً :" لماذا تراني أخاف من الكتابة "[19] . فهذه العبارة التي دونها المرزوق في كشف حسابه يشاركه فيها لاشعوريا اغلب الكتّاب العراقيين ، فثمة أعين رقيبة تحسب عليهم كلماتهم ويبقى خوفهم داخل النص ايضا ولا يكتفي بخارجه .

الخاتمة :

يعدُ هاجس الخوف مظهرا نفسيا قارا في النفس الانسانية ووسيلة دفاع نفسية تحميه مما يترصده ، فالإنسان يحيطه الخوف في صحيفة أيامه ولا ينفك عنه ؛ لأنَّ حياته حبيسة بالغيبيات والمجاهيل التي يختمها الموت وهو اكبر تلك المجاهيل التي تبقى هاجسا عنده ، أما الادب فهو انعكاس لوجدان الانسان ومعبرا عنه فهو يقف بين الواقع والخيال ويعمل على كسر هذا الطوق الذي يحاصره وينتشله فالكتابة في اساسها وعي ، ولذا فالإنسان ادخل النص وخارجه تبقى مشاعره هي نفسها، بيد أنَّ الكتابة تمنحه تحررا اكثر وتعطيه حق البوح اكثر من الواقع .

17 المصدر السابق : 51.
18 م . ن : 59.
19 المصدر السابق : 178.

لكننا نجد عقدة الخوف وهواجسه تبقى حاضرة ومتجسدة في رواية " مقتل بائع الكتب " التي تفضي عتبة العنوان فيها الى الموت والقتل ثم تتبع الاحداث فعل القتل والبحث عن فاعله ودوافعه ما دام المقتول معلوما فقط دون معرفة القاتل ودوافعه ...فلا تتكشف الا في اخرها ثم يتبين ان القتل كان بمحض المصادفة والاشتباه والاقدار التي جعلت المرزوق – المقتول – يمر مصادفة فتوهم القاتل انه هو المقصود .

لقد بدا هاجس الخوف في موارد كثيرة في عناصر الرواية لكننا نجده جليا في المكان من خلال وصفه من قبل الراوي والاشخاص فتنطبع من خلال اوصافهم ملامح الخوف ،لمكان قاتم يزهر الموت والانفجارات والاغتيال والرصاص منه ...

لقد تجسد الخوف فعلا وجدانية لحقبة تاريخية مهمة حاولت الرواية ان تبثه لتفضي لوسم الحالة التي تتجاوز حادثة مقتل بائع الكتب أو التقصي عن فاعلها بل استعرضت الرواية حيوات كثيرة وركزت على حياة المرزوق لتحكي قصة العراق وثقافته على مدن نصف قرن من الخوف والارتياب والضياع ...فجاءت مظاهر الخوف من خلال حوارات الشخوص والمنولوجات والتذكرات ليكون جانبا نفسيا وادراكيا راسخا في كل افئدة العراقيين في حقبة الرواية ولم تحاول الرواية تجاوزه او تهدمه لان الخوف هو انعكاس لرؤية عن الواقع الذي لايمكن تغييره مادامت فواعل الخوف غائبة وغير مصرحة بها كما لمحنا ذلك في كل الرواية التي لا تصرح الا بأوصاف عامة ولا تسمي الاشياء بمسمياتها .

وهو في سيرورتها تفضي الى الانتظار ، انتظار النهاية التي لوّنها هاجسُ الخوف مما يمنح القارئ مشاعر وهواجس وانثيالات شعورية ترافقه وتضعف شغفه في رحلة البحث عن القاتل الى عتبة وصف المكان ويوميات المدينة وقتذاك بظروفها وتشظياتها تريه لا جدوى الحرب وخرائبها على المكان والمكين معاً .

المصادر والمراجع :

1. أركان القصة ، فورستر ، ترجمة كمال عياد جاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2001 .
2. بناءالرواية : دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا قاسم ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2004 .
3. الخوف ، د. أحمد فؤاد الأهواني ، دار المعارف ، ط1 ، 1951 .
4. الخوف أسبابه وأنواعه ، أميمة علي خان ، مجلة الاقلام ، ج7 ، س1 ، اذار 1965.
5. الرواية والتلقي –رواية مقتل بائع الكتب لسعد محمد رحيم في دائرة النقد والقراءة ، اعداد : د. محمد صابر عبيد ،د. محمد جواد علي ، دار سطور ، بغداد ط1 ، 2018 .
6. صيغ التمظهر الروائي – بحث في دلالة الأشكال ، د . عبد اللطيف محفوظ ، ط5 ، منشورات دار النايا ، بيروت 2014.
7. الغرابة : المفهوم وتجلياته في الأدب ،د. شاكر عبد الحميد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،2012
8. في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد / عبد الملك مرتاض ، لمجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت ، 1988 .
9. مظاهر الزوال في الشعر الجاهلي -دراسة تحليلية - ، د. عبد الجبار الزبيدي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد : 104 / السنة 2013 .
10. مقتل بائع الكتب ، سعد محمد رحيم ، دار سطور ، بغداد ، ط2 ، 2017 .
11. المكان ودلالته في رواية مدن الملح ، ولعة صالح ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط1 ،2010.

Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264